

البطل المجاهد الشهيد الشيخ عز الدين القسام

مصباح غلاونجي

□ من تراثنا القومي المعاصر

في غمرة هذه الظروف العصيبة التي تتكالب فيها قوى الاستعمار والصهيونية على الأمة العربية والشعوب الإسلامية ، وتتناوشها من كل جانب بغية تفريق شملها ، وبعبثة قواها والسيطرة عليها ، يتنادى العرب والمسلمون الى احياء (النهضة العربية - الإسلامية) للم الشعث ورض الصف وتوحيد الغاية ، والرابطة في خندق واحد لمواجهة هذه القوى وردّها على أعقابها • ولا شك أن استذكارتنا لأبطالنا ، واستلهامنا أرواحهم ، يزيد من عزائمتنا على النضال ، ومن ثقتنا بالنصر - ولعل خير بطل نحیی ذكره ، في هذه الفترة هو (المجاهد الشيخ عز الدين القسام) الذي حمل لواء هذه النهضة ، وجاهد وناضل واستشهد في سبيل تحقيقها ، فكان ظاهرة فذة في تاريخنا المعاصر ، وقائدًا قوميًا لو اقتدى به الزعماء العرب لما حلت بفلسطين العربية كارثة سنة ١٩٤٨ وما استتبعته وتستتبعه حتى اليوم من كوارث ونوازل •

في مدخل جبلة (١) الشمالي ، وفي الجانب الغربي من الحديقة العامة التي تقوم الى يسار الداخل الى المدينة ، والتي تفصل ما بين آبدتين خالدين : جامع السلطان ابراهيم بن أدهم شمالا والمدرج الروماني جنوباً • يطل على الغادي والرائح نصب تذكاري بسيط متواضع ، كتبت عليه العبارات التالية :

« أقيم هذا النصب التذكاري تخليداً للذكرى البطل الشهيد عز الدين القسام • ولد في جبلة سنة ١٨٨٣ (٢) واستشهد في فلسطين سنة ١٩٣٥ - وضع حجر الأساس لهذا النصب في عهد الرئيس حافظ الأسد في ٦/٥/١٩٧٣ »

□ نشأته :

في الحي الجنوبي من بلدة جبلة طريق (٣) كانت تتلوى على جانبيه بيوت قديمة متراسة متلاصقة كأنها بنيان واحد ، شأن طرق جبلة وبيوتها في أواخر القرن التاسع

عشر • كان هذا الطريق على ضيقه يعج بالحركة والنشاط ، ويختلط فيه الانسان والحيوان ، وتتزاحم فيه العجل الموقرة بقضبان قصب السكر ، وباقات الملوخية والنعناع وغيرها من أنواع الخضر والبقول ، والجمال المثقلة بأكياس الحنطة والشعير والحمص والفلول ، وبحزم الحطب وهشيم العشب والزرع تنقلها من البرية الى البلدة وقوداً للافران والتنانير - ويمور بالغادين والرائحين من المزارعين والسابلة، وبالأطفال الذين لا يجدون، بعد تسريحهم من كتاتيبهم متنفساً لهم غير الدروب يلعبون فيها ويلهون ويسمرون •

في بيت متواضع من بيوت هذا الطريق ولد عز الدين ، ونشأ وترعرع مع هؤلاء الأطفال ، وقد ظهرت عليه امارات القيادة منذ نعومة أظفاره ، فكان يهيمن على أترابه بقوة شخصيته ، ويقودهم قيادة حكيمة ، وينظم نشاطهم ويوجههم نحو ألعاب الفروسية والقوة (٤) •

نشأ في أسرة عريقة ، عرفت بالعلم والتقى والورع • كان جده الشيخ مصطفى القسم وأخو جده عالين جليلين • وكان أبوه الشيخ عبد القادر عالماً باللغة والدين وعارفاً بالله متصوفاً • تزوج أبوه بامرأتين أولاهما من قلعة المرقب، وثانيتها أم عز الدين السيدة حليلة القصاب من جيلة ، فأنجب منهما سبعة أولاد ، وكان عز الدين سادس سبعة اخوة وأشقاء • وثاني ثلاثة أشقاء - اقترن الشيخ بالسيدة أمينة النعنع من جيلة فأنجب منها ولداً ذكراً واحداً أسماه محمداً ، وثلاث بنات هن : عائشة وميمنة وخديجة (٥) •

□ دراسته :

قرأ القرآن الكريم وتعلم القراءة والكتابة والحساب في الكتّاب ، ودرس العلوم الدينية والفقه على أبيه • وتتلّمذ أيضاً لشيخين جليلين عرفا بسعة العلم والمعرفة في اللغة والتفسير والحديث والفقه هما الشيخ سليم طيارة البيروتي الأصل ، والشيخ أحمد الأروادي • ولما بلغ أشده ، أنس أبوه منه فطنة ورغبة في العلم ، فأوفده الى مصر ليتابع دراسته في الأزهر • ويقال انه حضر دروس الامام الشيخ محمد عبده ، والعلامة الشيخ أحمد بخيت ، واجتمع بالشيخ رشيد رضا •

تخرج في الأزهر سنة ١٩٠٩ (٦) ، وعاد الى جيلة عالماً عاملاً يعمر صدره الايمان بالله وبحق أمتة في الحياة الحرة الكريمة ، وجعل يدرس في جامع الزاهد الصوفي ابراهيم بن أدهم تفسير القرآن والحديث ، ويلقي الخطب حاضاً على التمسك بشعائر الدين الحنيف ، وبالخلق العربي الاسلامي ، ثم عين موظفاً في شعبة التجنيد بجيلة (٧) وكان بعد فراغه من عمله ، ينصرف أيضاً الى عقد الحلقات الدراسية في جوامع البلد •

□ صفاته وشخصيته :

كان أميل الى القصر منه الى الطول ، وأقرب من النحافة أسمر اللون ، أسود العينين، كث اللحية ، طلق المحيا (٨) ، مهيب الطلعة وقوراً سديد الرأي ، صادق الفراسة ، ثبت الجنان شجاعاً ، حاضر البديهة سريع الخاطر، محدثاً لبقاً ، واثقاً من نفسه ، مستبشراً دائماً

ومتفائلا ، ايمانا منه بالله وبقضائه وقدره . وكان رحيماً بالناس . متواضعا وقانعا باليسير من المأكل والبسيط من الملبس (٩) ، صادقا اذا قال فعل ، ودؤباً على العمل ، شديد التحمل لمكارهه . « مرت سنوات من عمره في فلسطين ، وعمله يبدأ من الفجر ولا ينتهي الا في الساعات الأخيرة من الليل . يبدأ بعد صلاة الفجر بتعليم الأُميين (١٠) من العمال والكادحين ، واعدادهم للجهد في مدرسة البرج الاسلامية أو في جامع الاستقلال ، ويصرف وقته منذ الضحى حتى صلاة الظهر في الاتصال الحي بالناس وبجماهير العمال في مواقع عملهم ومواطن جلوسهم ، ويعود ظهراً الى بيته ومعه على الأغلب بعض المجندين لمناقشتهم ، ويمضي فترة بعد العصر في تقديم الدروس الجهادية . ويقوم بتدريب الحلقات على استخدام السلاح في جبل الكرمل . ويعود الى بيته ليشارك في حوار ساخن أو متشعب مع المناضلين الذين يأتون الى بيته عادة ، في المساء . » (١١)

وكان أبي النفس عزيزها ، يرباً أن يعيش الا من عمل يده وعرق جبينه ، روى زميل السيد عز الدين علم الدين التنوخي أن المال نفذ منهما ، وهما في مصر يدرسان في الأزهر ، فاقترح الشيخ عز الدين أن يعد التنوخي الحلوى المعروفة في مصر (بالنمورة) ، وأن يقوم ببيعها ، ليوفرا من ربحها حاجاتهما ، ويستغنيا عن مسألة ذوي اليسار من رفاقهما . ويقول التنوخي ، ان والده ، وقد بلغه هذا الخبر ، هنأه بصحبة الشيخ ، وقال له : لقد علمك الاعتماد على النفس ، وكسب الرزق الحلال الطيب ، وحفظ ماء الوجه من ذل السؤال (١٢) .

□ رجل دين ومصلح اجتماعي :

أما أنه رجل دين ، فقد كان قوي الايمان بالله ، عظيم الاعتماد على هذه القوة المعنوية . روي أنه حينما قدمت الى اللاذقية سنة ١٩١٩ الجنة - من الأميركيين - لجنة كراين - لاستفتاء المواطنين في شأن تقرير مصير البلاد السياسي ، واختيار دولة لتكون وصية عليها ، شخص وفد من جبلة لمقابلتها ، وكان الشيخ من أعضائه - ولما سئل عن رأيه قال بايمان وجراءة : « لا وصاية ولا حماية » فقال رئيس اللجنة : نعتقد أنكم لا تستطيعون ادارة أنفسكم وحماية بلادكم ، وأنتم على هذه الحال من الضعف وعدم التجربة ، فرد عليه الشيخ قائلاً : اننا نستطيع وليس غرنا أقدر منا على ذلك ، اذ أن لدينا قوة لا يملكها سوانا ، وأخرج من جيبه القرآن الكريم ، وقال : هذه قوتنا « (١٣) ثم انقلب هو وأصحابه الى جبلة ، وصدورهم تضطرم حقداً وضغينة على الحلفاء ونواياهم المبيتة في احتلال البلاد واستعمارها باسم الوصاية والانتداب . وقد ألفت في جبلة بعدئذ حكومة مؤقتة ولي الشيخ فيها القضاء الشرعي (١٤) .

وكان ذا غيرة وحمية على الدين ونقائه ، وسيفاً مصلتاً على أعدائه . هب وهو في فلسطين يحارب بعنف وشدة بأس البهائيين الذين انحدروا الى حيفا من ايران ، والقاديانيين الذين قدموا اليها من الهند ، ويفضح زيف معتقداتهم وشعوذاتهم (١٥) التي ترمي الى

افساد عقيدة العامة من المسلمين ، والى السيطرة على تفكيرهم ، والاستبداد بارادتهم وتوجيههم ملتويًا يخدم منافعهم الخاصة ، وأوطار الاستعمار ومآربه .

وكان يمقت التعصب الديني والطائفي ويحاربه ، ويدعو الى الاجماع الوطني وانتعاون بين العرب على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم ومشاربهم ، ويعتبر الخروج على هذا الاجماع خيانة قومية ، وعداء للأمة (١٦)

كما كان صافي العقيدة ، منعتاً من ربة الجمود والتزمت والغلو ، منكراً لكل ما يند عن جوهر الدين وعن سمو مثله ، وينبو عن طبيعة العقل الاسلامي المتحرر ، وعن فكره السمح . قاوم البدع والتقاليد التي أقحمت على الدين ، وندد برجال الدين الذين كانوا يقرونها أو يسكتون عنها ، وشاركه في حملته الإصلاحية هذه صديقه الشيخ محمد كامل القصاب (١٧) وأيدهما الشيخ علي سرور الزنكلوني أحد علماء الأزهر بفتاواه وقد أثار ذلك حفيظة أولئك الشيوخ الرجعيين ، فانبروا يردون عليه وعلى مؤيديه ، وأصدر الشيخ محمد صبحي خزيان قاضي عكا آنذاك كتيباً أسماه « فصل الخطاب في الرد على الزنكلوني والقسام والقصاب » مما دعا الشيخين - القسام والقصاب - الى اصدار كتيب أسماه « النقد والبيان في رد أوامر خزيان » فنُدا فيه ما جاء في كتيبه مستشهدين بالقرآن الكريم والسنة الشريفة (١٨) .

وكذلك كان واسع الأفق في فهم جوهر الدين وحقائقه ومفاهيمه الانسانية والحضارية، ومدركا ادراكاً واعياً لدور الدين ودور رجاله على مسرح الحياة العامة . فالدين عنده عقيدة ونظام ، كل يكمل الآخر ، ويؤلفان وحدة تهدف الى تحقيق مصلحة الأمة ومنافعها واصلاح حالها وتقرير الأمن والطمأنينة فيها ، وتوفير عزتها وسعادتها ، كما كان يؤمن أن في أحكام الشريعة الاسلامية من اليسر والسعة والمرانة ما يتيح الاستجابة لحاجات المجتمع ومطالبه في جميع الأمكنة والأزمنة والظروف .

وانطلاقاً من كنه هذا الادراك ، لم يقف دروسه وخطبه على تفقيه الجماهير بالعبادات، وعلى دعوتهم الى ممارستها ممارسة صادقة خالصة ، فحسب ، بل تعداها الى شؤون الحياة بعامة ، والى القضايا الوطنية والقومية بخاصة ، ولا سيما القضية الفلسطينية . فقد حمل بعنف وصراحة وشجاعة على الزعماء السياسيين التقليديين وعلى أساليبهم الرجعية الاستسلامية التي كانوا ينهجونها مع البريطانيين في معالجة القضية الفلسطينية ويبرهن على عقمها ، كما أنه أهاب بالمجلس الاسلامي الأعلى أن يتوقف عن بناء الفنادق ، وعن تزويد الجوامع والمساجد بالاثاث الفاخر وبمعالم الزينة والزخرف ، بل أن يبيع ما تحويه - حتى المسجد الأقصى - مما ليس ضرورياً أن يقتنى في الجوامع التي هي بيوت للعبادة وليست متاحف ومعارض، وأن يشتري بشمنه العتاد والسلاح (١٩) لمقاومة طغيان البريطانيين والوقوف سداً منيعاً في وجه المد الصهيوني .

ومن أقواله في هذا المجال : « يجب أن تتحول الجواهر والزينة في المساجد الى أسلحة . . . فاذا خسرتم أرضكم كيف تنفعكم الزينة وهي على الجدران » ؟ (٢٠)

وكذلك دعا ، عندما استفحل الخطر ، الى ارجاء أداء فريضة الحج وبذل ما تستدعيه من نفقات في سبيل الاعداد للجهاد (٢١) ، وذلك أن الحج ركناً من أركان الاسلام ، فان الجهاد هو حامي حامي الاسلام وأركانه ، وهو الدرع الواقية التي ترد عن الأمة شر المستعمرين وأذى الطامعين . والاسلام شرع الجهاد بالأموال والأنفس حيث لا مندوحة منه ، ولا مسوغ لتركه ، وجعله ، في المرتبة ، بعد الايمان بالله ورسوله . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون (٢٢) » وكذلك أثر عن رسول الله ﷺ وقد سئل أي العمل أفضل ؟ قوله : « ايمان بالله ورسوله » قيل ثم ماذا ؟ قال : الجهاد في سبيل الله ، قيل ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور » (٢٣) .

وهكذا كانت أقواله وخطبه ودروسه جامعة تتأدب فيها الجماهير بأدب الاسلام الحق ، ويتلقون فيها ثقافة قومية أصيلة تؤهلهم لتحمل المسؤوليات والتبعات الدينية والاجتماعية والقومية ، و « كانت بنظر الكثيرين من مريديه اعلاناً لرأي الدين في ما يجري من شؤون السياسة والحياة وتحديداً للموقف الحق أمام المؤمن الحقيقي ، على خلاف غالبية الأئمة ، لم يستخدم منبر خطبه يوم الجمعة للهروب مما يجابه الشعب في معركته الوطنية الى طقوس العبادة فحسب ، بل على العكس تماماً استثمر المنبر المفتوح لأكثر الأحاديث جرأة في التحريض والتعبئة وحض المؤمنين على القتال ، حتى استحق بجدارة لقب « داعية الجهاد » (٢٤) .

المجاهد البطل

الانتفاضة الأولى

حينما هاجمت إيطاليا ليبيا سنة ١٩١١ هب القسام بحماسة وحمية ، يدعو الناس في جبلة الى التطوع والتوجه الى ساحة المعركة ، والمحاربة في صفوف الجيش التركي المسلم ، وطلق يجمع التبرعات لتمويل الحملة ، ولمساعدة عائلات المتطوعين .

وقد استجاب لدعوته نفر كبير من الجبلانيين ، وسار على رأسهم الى اسكندرونة ، أملاً بأن تنقلهم السلطات التركية بحراً ، الى حلبة الجهاد في ليبيا . ولكن الحكومة التركية أمرته هو ورجاله بالعودة الى جبلة بعد أن أمضوا في اسكندرونة شهراً . ويبدو أن أسباباً سياسية حالت آنذاك دون ترحيلهم ، ولعلها اعتزام تركية على ابرام معاهدة صلح مع الطليان . فقفل راجعاً هو ورجاله الى جبلة والحسرة تملأ نفوسهم لحرمانهم من المشاركة في شرف الجهاد على أرض ليبيا العربية المسلمة . (٢٥)

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى تطوع للخدمة في الجيش التركي ، وأرسل الى معسكر جنوبي دمشق حيث أتقن التدريب على حمل السلاح وأساليب القتال (٢٦) .

□ ثورته على المستعمرين الفرنسيين :

بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، راع الشيخ أن ينكث الحلفاء بعهودهم التي قطعوها للعرب بالتححر والاستقلال ، وهاله أن يلجأ الفرنسيون الى اقتحام سورية وغزوها واذلال شعبها وبث روح الفتن والنكرات العنصرية والدينية والطائفية في نفوس أبنائها ، ولا سيما في منطقة اللاذقية ، فوثب كالليث الغضنفر يؤذن بالناس : أن حي على الجهاد . وقد لبى نداء جمع غفير من المتطوعين من جيلة ، فأخذ يدرهمهم على حمل السلاح وأفانين القتال على شاطئ خليج بحري يدعى (البحيص) جنوبي جيلة . ولكن أعين الفرنسيين التي كانت مبثوثة في كل مكان لم تغفل عنه ، فأخذوا يضيقون عليه الخناق ، ويتربصون به وبرجاله الدوائر ، ولما أوجس منهم الريبة ، واستشعر الكيد والغدر ، ورأى أن منازلهم في سهول جيلة المكشوفة تتيح لجيشهم الجرار قمع ثورته في مهدها ، تطلع الى موقع آخر أكثر حصانة ومنعة وأبقى على الكفاح المسلح ، فاختار جبال صهيون (٢٧) ميداناً للجهاد، فيمم شطرها مع رجاله ، وكان من أبرزهم : الحاج خالد صهيوني (٢٨) . وكان يده اليمنى - والشيخ أحمد عبد الحليم (٢٩) . والحاج محمد الحاج يوسف ، وحسن الحاج عبيد ، والحاج محمود عمر الشداد . وما أن بلغ قنن هذه الجبال حتى اتخذ قاعدة عسكرية له في قمة منبوعة منها تقع قرب قرية (الزنقوفة) ، وطلق هو ورجاله يغفرون على المراكز العسكرية الفرنسية في الجبال وفي مشارف المدن الساحلية ، ويقاوم ببسالة وشدة بأس الحملات التي كان الفرنسيون يجردونها لمقاتلته ويردها على أعقابها مخذولة . ولكن هذه المقاومة أخذت تضعف وتتضاءل مع الأسف ، بعد أن ثبت الفرنسيون أقدامهم في المنطقة وبسطوا سيطرتهم عليها ، فخشي أن يطوقوا قاعدته ويفتكوا به ورجاله ، فانسحب منها الى بلدة (جسر الشغور) التي كانت إحدى القواعد العسكرية لثورة المجاهد ابراهيم هنانو . ويقال انه في الوقت الذي كانت القوات الفرنسية توجه انذارها الى الملك فيصل ، كان الشيخ هو وفصائله من أصحابه المجاهدين قد غادروا بلدة جسر الشغور متجهين الى دمشق لخوض غمار المعركة ، ولكنهم لم يبلغوها الا بعد فوات الأوان .

لقد كان لثورته في صهيون أثر شديد الوقع على الفرنسيين ، لما لمسوه فيه من ايمان بالله وبحق أمته بالتححر والاستقلال ، ومن مضاء عزمته وقوة شكيمته ، وحاولوا استمالته ، فأوفدوا اليه رسولا يحمل منهم رسالة شفوية يدعونه فيها الى مسالمتهم والكف عن مقاومتهم ، والى العودة الى جيلة آمناً ، ويعدونه بتعيينه قاضياً شرعياً في المنطقة ، ولكنه رفض دعوتهم بحزم ، وقال لرسولهم : عد من حيث أتيت ، وقل لهؤلاء الغاصبين : « انني لن أقعد عن حربهم أو ألقى الله شهيداً » ونكالا به حكموا عليه غياباً بالاعدام (٣٠)

في فلسطين

موطن الانبياء والمرسلين ، ومثوى المجاهدين والصديقين

لئن استطاع الفرنسيون أن يقيموا ثورة الشيخ عز الدين في جبال صهيون بالحديد والنار ، بعد أن بسطوا سلطانهم على منطقة اللاذقية وعززوا فيها قواتهم ، لقد عجزوا

أن يطفئوا نور الايمان في قلبه ، وأن يخمدوا نار الجهاد التي يلهب اوارها في صدره حقداً عليهم وعلى حلفائهم المستعمرين الفاصبين ، أو أن يثنوا عزيمته عن المضي قدماً في طريق النضال القومي الذي سلكه منذ أن شب عن الطوق ، وبلا الاستعمار وويلاته ، لقد رنا بعد أن غادر جبال صهيون ، الى ميدان آخر من ميادين الجهاد ، فكانت فلسطين المنكوبة ضالته وقصده ، فشد اليها الرحال سنة ١٩٢١ هو ورهط من مجاهدي جبلة ، وحلوا بمدينة حيفا - وبعد أن استقر به المقام فيها عينته الجمعية الاسلامية مدرساً في مدرسة للاناث وفي مدرسة البرج الاسلامية للذكور (٣١) سنة ١٩٢٢ وهي سنة تأسيس المدرسة الأخيرة منهما ، وظل يعمل فيها حتى سنة ١٩٢٥ اذ عينته الجمعية اماماً لجامع الاستقلال الذي تم بناؤه في تلك السنة . وفي سنة ١٣٤٦ هـ (١٩٢٨ م) أسست جمعية الشبان المسلمين في فلسطين ، وأجري أول انتخابات فيها ففاز برئاسة هيأتها الادارية بمدينة حيفا ، ثم عينته المحكمة الشرعية مأذوناً شرعياً في حيفا ومنطقتها . (٣٢)

كانت هذه الوظائف والأعمال التي تولاهم جسوراً وصلته بالجيل الجديد من الشباب المثقف ، وبالزعامات المحلية ، وبالكتل والأحزاب السياسية وبالمنظمات والمؤسسات الاجتماعية وبمختلف طبقات الشعب وأتاح له فرصاً مواتية ليطلع على الأوضاع التي كانت تهيمن على البلاد ، ويتعمق بدراساتها ويستوعب أسرارها وخفاياها ويكشف عوراتها وتناقض مآتيها . وقد رأى أن المجتمع العربي كان آنذاك متفكك العرى ، رازحاً تحت وطأة شديدة من الصراعات العائلية ، ومن مهاترات الكتل والأحزاب والزعماء الرجعيين المحليين ، ومن سياسات الملوك والرؤساء العرب الذين تحكمت بمعظمهم الأهواء الخاصة والمطامع الشخصية ، وحدتهم على أن يؤثروا السلامة على ركوب المخاطر ، ويعتمدوا الأساليب الاستسلامية ، أو ما كانوا يدعونه (بالطرق المشروعة) التي كانت مزيجاً من احتجاجات واضرابات وتظاهرات ، كان يسقط في ساحها كثير من المواطنين الأبرياء ، دونما جدوى أو طائل من ناحية ، ومن تعاون مريب مع سلطات الاحتلال ، وثقة بهم ، وركون الى مهادنتهم ومفاوضتهم ، من ناحية أخرى ، بينما كانوا هم دعامة الشعب يدركون أن هذه السلطات كانت تمكر بالعرب ، كما مكرت بهم من ذي قبل ، وتكيد لهم ، وتختزن الصهاينة وتأخذ بأيديهم لاقامة مجتمعهم الاستيطاني ، وبناء دولتهم حجراً بعد حجر . وقد عبر القسام عن التواء هذه الأساليب أبلغ تعبير وأوجزه بقوله : « من جرب المجرّب فهو خائن » (٣٣) .

وقد خلاص الشيخ من سبر أغوار هذه الأوضاع الى العبر والحقائق التالية :

أ - ان التشبث بأذيال ما أسموه (الطرق المشروعة) ليس الا لهواً وعبثاً بالأمانى القومية ، ولعبة سياسية مفضوحة ، بل مؤامرة خطيرة حيكت ضد مصلحة الوطن والعروبة .

ب - ان الجهاد المسلح هو الوسيلة المشروعة الوحيدة للمقاومة .

ج - ان البريطانيين هم (رأس الداء وأصل البلاء) • وان السلاح ينبغي أن يشهر أولاً في وجوههم للتخلص منهم ، ثم في وجوه صنائعهم الصهيينة • ويجب معاجلتهم بالقتال قبل أن يتمكنوا من بسط سلطانهم على البلاد ، وقبل أن تتعاضم ، في ظلهم ، قوى الصهيينة ، ويصبحوا في حال يستطيعون معها أن يختارواهم الظروف المناسبة للانقضاض على العرب والظفر بهم ، ومن أقواله في هذا الشأن : « ان اليهود ينتظرون الفرصة لافناء شعب فلسطين ، وللسيطرة على البلد ، ولتأسيس دولتهم » (٣٤) •

في هدي هذه الحقائق التي تكشفته له ، شمر القسام عن مساعد الجد ، متجاوزاً جميع التناقضات الروحية والفكرية والسياسية ، وشرع ينظم ثورته ويمد لدواعيها ولأسباب قوتها ، ويوعّي الجماهير ، ويدرب من اصطفاهم من المجاهدين على القتال •

□ التوعية والاستنفار :

لم يقصر ميدان نشاطه في توعية الجماهير على المدارس والجامع ، بل تجاوزه الى الأماكن والأوساط الشعبية ، فكان يغشى الأحياء الفقيرة ، ويزور العمال والكادحين في مراكز أعمالهم ، وأماكن استراحتهم وبيوتهم ، ويختلج الى المزارع والقرى ومضارب البدو ، وكان يجالس الجميع ويحاورهم ويناقشهم في الشؤون الدينية والسياسية والوطنية ، ويبصرهم بجوهر القضية الفلسطينية • ويوضح لهم أبعاد السياسة البريطانية ومطامع الصهيونية ، ويكشف لهم زيف الزعامات المحلية ، وما ينجم عن ذلك كله من عواقب وخيمة تفضي الى ضياع الوطن وتقتيل أبنائه وطردهم من ديارهم وتشريدكم في الآفاق ، حتى لكان حجب الغيب وأشعاره كانت متكشفة أمام عينيه ، فكان ما يقوله هو عينه ما حل بالفعل ، بعده ، في فلسطين من كوارث منذ عام ١٩٤٨ حتى يومنا هذا • وكان ، خلال محاوراته لهم يوقظ ضمائرهم ، ويستنهض هممهم وعزائمهم ، ويستنفذهم لحمل السلاح والجهاد في سبيل الله والوطن • وقد كان صدق إيمان القسام بما يدعوهم اليه ، وقوة شخصيته وحماسته وأصر وثقت صلاته بهم ، وجذبتهم اليه ، واستمالتهم الى الثقة به ، والى احترامه والولاء له ، من ناحية ، وجمعت شتاتهم ووطدت عرى الأخوة بينهم ، وألفت بين قلوبهم ووحدت أهدافهم الروحية والوطنية ، فأقبل عليه جمع غفير منهم ملين دعوته ، ومجاهدين الله على السير وراءه في طريق الجهاد •

وكذلك كانت حركته أول تنظيم عربي ثوري عقائدي يقوم على قاعدة ثابتة صلبة تنتظم جماهير العمال والكادحين والفلاحين الذين هم يمثلون بحق ، القوى الوطنية المؤمنة الأصيلة ، والطاقات الفاعلة في جميع الحركات الثورية العقائدية التقدمية •

□ الترويض الخلقي والتدريب العسكري :

كان يروض رجال عصبته ، قبل كل شيء ، على ما كان يسميه (الجهاد الأكبر) أي مجاهدة النفس وأهوائها ، والصبر على المكاره والشدائد ، وعلى الشجاعة والتضحية والفداء ، حتى اذا أنس فيهم ما كان يبغيه من تكامل في شخصياتهم روحياً وخلقياً ، عكف

على تدريبهم عسكرياً في جبل الكرمل على حمل السلاح والتمرس بالقتال ، وكان يعاونه في التدريب وحدة عسكرية من رجاله . أما السلاح فكان يشتريه مما كان يقدمه أصحابه ومؤيدوه ومريدوه ، وبعض المنظمات الشعبية من تبرعات . وكان التكتم والسرية يكتنفان جميع تحركاته وأعماله في هذا المجال .

الاستشهاد

في رحاب الله وذمة التاريخ

كان الجو السياسي في فلسطين قد بلغ ذروة التوتر والخطر سنة ١٩٣٥ فالتظاهرات الصاخبة ، والاضرابات الشاملة اجتاحت البلاد احتجاجاً على السياسة البريطانية الموالية للصهاينة ، واستنكاراً لوسائل القمع الوحشية التي مارستها السلطات ضد العرب ، في هذا الجو المحموم خرج القسم من حيفا على رأس نفر من رجاله الى تلال (يعبد) في منطقة جنين في الثاني عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٥ (٣٥) ، ووزعهم على بعض القرى . بيد أن عيون البريطانيين والصهاينة أحسّت بغياهم عن الساح ، فنشطوا في البحث عنهم في كل مكان . وكان ، من الصدف ، أن شاهد المجاهد المعهود اليه بأمر المراقبة دورية للعدو مؤلفة من ضابط يهودي وشرطي عربي تجوب تلك النواحي متجهة نحو الخط الأمامي للمجاهدين ، فأطلق النار على الضابط فأرداه قتيلاً . وخلق سبيل الشرطي . وقد أدى ذلك الى افتضاح أمر المجاهدين ، والى الاحاطة علماً بمواقعهم ، فجردت السلطات عليهم حملة كبيرة أحكمت الطوق على معقلهم ، ودعت قائدهم البطل الى الاستسلام فأبى ، وقال لأصحابه : « لن نستسلم ، ان هذا جهاد في سبيل الله والوطن . فلنميت شهداء » (٣٦) ، فقاتلوا قتالاً ضارياً حتى نفدعتادهم ، فهاجمهم الأعداء من كل حذب وصوب ، فقضى القائد هو وأربعة من المجاهدين الأبرار في ساحة الشرف ، وأصيب بعض المجاهدين بجراح وسلم بعضهم وأسروا جميعهم . وقد أقيمت للشهداء جنازة مهيبه في حيفا . أما القائد القسم فقد شيعته الجماهير مشياً على الأقدام وحمل على الأكف الى مثواه الأخير في قرية (الباجور) التي تبعد من حيفا قرابة عشرة كيلو مترات .

رحم الله أبا تمام ، لكاني به ، وهو يرثي محمد بن حميد الطوسي ويمجد بطولته ، انما كان يرسم ، في الوقت نفسه ، صورة حية صادقة ، لعناد القسم في المعركة وثباته وحسن بلائه واستشهاده بهذه الأبيات :

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة	تقوم مقام النصر ان فاته النصر
وقد كان فوت الموت سهلاً فردّه	اليه الحفاظ المر والخلق الوعر
ونفس تعاف العار حتى كأنما	هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر
فأثبت في مستنقع الموت رجله	وقال لها من تحت أخمصك الحشر
غدا غدوة ، والحمد نسج ردائه	فلم ينصرف الا وأكفانه الأجر

من قصيدته الرائعة التي استسهلها بقوله :

كذا فليجل الغطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض مأوها عذر

□ هذر وجعود :

يبدو أن بعض من ندد القسام بسياستهم المتخاذلة ، وحمل على أساليبهم المشبوهة المريبة ، ولم يستطيعوا أن يجدوا ، في حياته ، ثغرة ينفذون منها الى النيل منه ، قد تجرؤوا عليه ، جنباً وبهتاناً ، بهذر القول بعد استشهادهم . وقد عبر عن بعض تقولاتهم الأستاذ أحمد الشقيري بقوله : « وما ان انتهت قضية القسام وعصبته الباسلة حتى بدأ الحواريين « المفكرين » وأهل « الكلام » : ماذا فعل القسام ، وماذا أفاد الوطن ؟ ألم يذهب ضحية رخيصة رحمه الله ؟ ألم يغرر بأولئك البسطاء السذج من غير خطة مدروسة ، ليتحدوا السلطات البريطانية في معركة غير متكافئة ؟ ولم يكن الشعب ، سواد الشعب ، يخوض مع الخائضين في هذا الجدل العقيم (المسكين) . ذلك أن الشعب يمجّد البطولة في جميع الظروف والأحوال . ولكنه جدل المجادلين الذين لا يؤمنون بالكفاح حتى لو جعلت السماء في قبضة أيديهم . » (٣٧) .

والحقيقة التي أجمع على تقريرها معظم الذين كتبوا عن القسام هي أنه لم يخرج الى الجبال ، آنذاك ، بغية البدء بالقتال ، وانما خرج لأسباب كثيرة أهمها :

أ - خشيته على ثورته ورجالها من البريطانيين الذين برهوا بحماسة الوطنية ، وبحميته القومية ، وضاقوا ذرعاً بتحريض الجماهير على مقاتلتهم ، واستشعروا الجزع من نتائجها ، فراحوا يتعقبونه للقضاء عليه ، ولاخمد نار الجهاد التي أججها في نفوس الجماهير .

ب - الدعوة الى التسليح في تلك الجبال ، واستنفار المواطنين فيها للقتال .

ج - تحدي الزعماء المحليين التقليديين ، بالمثل الصالح والقُدوة الحسنة ، ووضع الملوك والرؤساء العرب آنذاك أمام امتحان قومي يصعب التغلّي عنه والفرار منه ، أملاً بأن يرفعوا عن غيهم ويثوبوا الى رشدهم ، ويقرّوا أن الحق الذي لا تحميه القوة ولا يدعمه الجهاد ضائع ، وأن ينضوا تحت لواء قيادة موحدة مؤمنة بهذا المبدأ ، بعد أن مزقوا الشعب وفرقوه شيعاً وأحزاباً ، وهدرُوا طاقاته وبددوا قواه ، وثبطوا من هممه وعزائمه وأقعدوه عن الجهاد والقتال بتقبلهم إياه ، وتعليقهم له بالأمانسي الكاذبة والوعود الباطلة (٣٨) .

ومع ذلك ، فإن ما تقوّله أهل « الكلام والجدل المسكين » ، وهو نابع عن سوء نية وخبث طوية ، ورغبة في التشفي ، لا يضير القسام ورجال الصناديد ، بل انه بالضد ، يعتبر من مآثرهم الخالدة لأنه كان نقطة تحول تاريخية في النضال العربي ، كما أنه يرفع من شأنهم الى ذروة الجد والشرف ، وينهض بهم الى أسمى مراتب البطولة التي يعجز عن ادراكها

هؤلاء المتقولون وأمثالهم ممن لا يؤمنون بالنضال ، ويركنون الى الخزي والشنار . ذلك أن البطولة تنبع من مثل انسانية شاملة أصيلة يعتنقها الأبطال ويندرون كل ما يملكون في سبيل بلوغها ، وهي تولد في نفوسهم قوى خارقة وطاقات هائلة . وان من أبرز سمات الأبطال استسلامهم لدواعي هذه المثل ، والقائم مقاليدهم لتلك الطاقات والقوى المعجزة التي تتفجر تلقائياً ، أثناء مسيرتهم ، للاستجابة لتلك الدواعي ، وللذود عنها واستبقائها حتى أبدية ، كيفما كانت الظروف والأحوال ، ومهما كانت العاقبة والمآل .

وهذا غير التهور الذي قصد أصحاب «الكلام والجدل المسكين» أن يصموا به القسام وعصبته ، والذي هو نقيضة خلقية تقابل البطولة ، وتتأتى ، في العادة ، عن انفعالات نفسية تثيرها في صدر المتهور آتانية جامحة ، وحب للذات ، وأوطار فردية أو مطامع مادية لا تمت بصلة الى المصلحة العامة وشرف المقصد الذي تهدف اليه البطولة . بل قد تقود المتهور ، في بعض الأحيان ، الى انتهاك حرمة بلده ، وخيانة أمته .

□ رسالة سامية :

مما سقناه بإيجاز عن حياة القسام وشخصيته وأعماله ، يتضح أنه لم ينتسب الى حزب سياسي ، ولم ينتم الى كتلة من تلك الكتل التقليدية التي قادت الحركات السياسية في فلسطين وفي البلاد العربية الأخرى ، ولم يكن تبعاً لأحد من الزعماء ، وانما كان ، في الحقيقة ، صاحب رسالة فذة انبثقت عناصرها عن مثل عليا دينية واجتماعية وقومية ألا وهي «إحياء النهضة العربية الإسلامية» التي يدعو فيها الى صفاء العقيدة ، ووحدة الصف العربي - الاسلامي ، ووحدة فكره وغايته ونضاله ، والتصميم على دك معاقل الاستعمار أيا كانت صفته ، وحيثما كانت وجهته ، لا نقاذ الأمة من برائته واستعادة حقها في الحرية والعزة والقدرة على الابداع وامداد العالم بما أمده به ، ابان مجدها ، من قيم سامية ، ومفاهيم حضارية كانت روحاً لبنية المجتمع المتمدن القائم اليوم في العالم كله . وهي ما يتنادى اليه اليوم قادة العرب والمسلمين .

ولا شك في أن كثيرين ممن تصدوا للإصلاح قد سبقوا القسام الى دعوات اصلاحية مختلفة الغايات ، وبشروا بها بخطبهم ودروسهم وأقلامهم ، ولكن جلهم قد وقفوا جهودهم عند حدود الكلمة ولم يتعدوها الى العمل والى قيادة الجماهير لتحقيقها أما القسام فكان بدءاً من هؤلاء ، كما رأينا . تفانى في سبيل تحقيق رسالته وبلوغ مراميها ، مجرداً عن الهوى ، بعيداً عن الطمع في زعامة يتفياً ظلالها ، أو في شهرة ينالها ، أو منصب يتبوؤه ، أو مكسب يصيبه . قرن رسالته بالعمل الصادق الدؤوب والكفاح المتواصل ، والقدوة الحسنة طوال حياته . باع داره وما يملك في جيلة واشترى بثمنها العتاد والسلاح وحارب الفرنسيين الطغاة ، ثم فر برسالته متنقلاً من ساحة جهاد الى ساحة جهاد في الوطن العربي ، وأبلى في كل بلاء حسناً ، ثم جاد بروحه في أرض فلسطين العربية المقدسة وهو يضغط باصبعه على زناد بندقيته مقتدياً بأعظم القواد العرب والمسلمين ، ولا سيما البطل المجاهد شيخ الصوفية ابراهيم بن أدهم ، الذي استشهد وهو قابض على قوسه الموترة في غزوة بحرية

ضد الروم ، والذي كان القسم قد قضى زهرة شبابه في حرم جامعہ بجبلہ وتحت قبابه
دارساً ومدرساً وخطيباً ومرشداً ومكافحاً ، مستلهماً من روحه مبادئه في صدق العمل
وسلامة العقيدة والجهاد في سبيل الله والعروبة .

وكذلك كان القسم صاحب رسالة سامية ، ورائداً عربياً مسلماً أصيلاً ومصلحاً
صادقاً ، بل ظاهرة فذة في تاريخنا المعاصر .

وقد عبر الشاعر العربي الفلسطيني عن نوس عن بعض مآثره في قصيدته التي رثاه
فيها ، بقوله : (٣٩) .

من شاء فليأخذ عن القسم	أموذج الجندي في الاسلام
وليتخذه اذا أراد تخلصاً	من ذله الموروث خير امام
ترك الكلام ورصفه لهواته	وبضاعة الضعفاء محض كلام
أو ما ترى زعماءنا قد أدموا	الأذان قولاً أيما أدام
كنا نظن حقيقة ما حبروا	فاذا به وهم من الأوهام

★ ★ ★

وكذلك الشاعر الكبير الشيخ فؤاد الخطيب بقوله : (٤٠)

أولت عمائمك العمام كلها	شرفاً تقصر عنده التيجان
ان الزعامة والطريق مخوفة	غير الزعامة والطريق أمان
يا رهط عز الدين حسبك نعمة	في الخلد ، لا عنت ولا أحزان
شهداء بدر والبقيع تهللت	فرحاً ، وهش مرحباً رضوان

وشاعر الكشافة مطلق عبد الخالق بقوله : (٤١)

يا شهيد الدين والوطن	وعظيماً ثار لم يهن
أنت حي في ضمائرنا	أنت لا تفنى مدى الزمن

□ انتصار القسم وخلوده :

لئن فات القسم أن ينتصر عسكرياً في ساحة الجهاد التي قهر على خوضها قبل الأوان ،
وأن يقر عيناً بما كان يصبو الى تحقيقه من أهداف اجتماعية وقومية ، قبل أن ترفع روحه الى
الملأ الأعلى ، لقد انتصرت رسالته من بعده . وحسبنا دليلاً على انتصاره أن أولئك المجاهدين
الميامين من عصبته ، والذين فاتهم شرف الاستشهاد ، ومواكبة قائدهم الى رحاب الله ،
فأسروا وألقوا في غياهب السجون ، قد واجهوا رجال القضاء البريطانيين وهم في قفص الاتهام
يحقيق بهم الموت بنفوس راضية مطمئنة ، واعترفوا اعترافاً شاملاً بأنهم خرجوا مع
رائدهم الى الجبال مهاجرين الى الله ، ومجاهدين مقاتلين في سبيل وطنهم وأمتهم العربية (٤٢) .

ويكفيها شاهداً ، أيضاً ، على هذا الانتصار أن باب الجهاد المقدس والكفاح القومي الذي فتحه لم يوصد ، وأن راية النضال التي رفعها طوال حياته وقضى تحت ظلها لم تسقط ، بل ظلت مرفوعة تخفق بنفحات من روحه الكبيرة فوق ألوية وفصائل المقاومة العربية الفلسطينية الباسلة التي كانت بحق وصدق ، ثمرة من ثمرات رسالته ، وستظل ، بإذن الله ، وبارادة الشعب العربي وتصميمه مرفوعة باباء وشمم ، يتوارثها كابر عن كابر ، ويحميها بالدم الطاهر شهيد اثر شهيد حتى النصر .

ذلكم هو انتصار القسام ، وسر عظمته وخلوده هو وأمثاله من الأبطال والرواد والقادة والمصلحين في التاريخ ، رسالاتهم لا تكون رهناً بحياتهم فتنقضي بانقضائها ، ولا وقفاً على جيلهم فتزول بزواله ، ولكنها تبقى تراثاً قومياً بل إنسانياً يمد الشعوب جيلاً بعد جيل بالقوة والمنعة والأمل ، ويفتح لهم سبل الحياة الحرة العزيزة والعيش الناعم الكريم .

دمشق في ١٤/١١/١٩٨٣

مصباح غلاونجي



ثبت الحواشي والتعليقات

- ١ - جبلة بلد صغير على الساحل العربي السوري . تقع جنوبي اللاذقية وتبعد عنها ٣٥ كيلو متراً .
- ٢ - جاء في الثورة العربية الكبرى في فلسطين : ١٩ ، وفي تطور الحركة العمالية الفلسطينية : ١٣٥ ان القسام ولد سنة (١٨٧١ م) ، وجاء في الأعلام للزركلي ٦ : ٢٦٧ ، وفي اعلام الاسلام للطنطاوي ١ : ٣٠٧ ، ومجلة الجيل : ١٩٤١ انه من مواليد (١٨٨٢ م) والصحيح هو ما ذكرناه لأنه ماخوذ من سجلات الأحوال المدنية الرسمية في جبلة .
- ٣ - يسمى هذا الطريق اليوم (شارع فيصل) وكان يطلق عليه (طريق الدرية) .
- ٤ - من روايته لبعض المعمرين في جبلة ، وبعض أقاربه الرحوم ظافر القسام والسيد مالك القسام .
- ٥ - مستقاة من نجله محمد عز الدين .
- ٦ - مجلة الجيل : ١٤٢ .
- ٧ - من السجلات الرسمية في منطقة جبلة .
- ٨ - عن روايات متواترة في جبلة ، ومن المصادر التالية: أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية : ١٤٣ ، المقاومة الفلسطينية : ١٠٠ و ١٠١ ، مجلة الجيل : ١٤١ - ١٤٢ ، الثورة العربية الكبرى في فلسطين : ١٩ - ٢١ .
- ١٠ - أولى القسام أمر تعليم الأميين وتثقيفهم اهتماماً خاصاً في جميع مراحل حياته . ولدينا صورة فوتوغرافية لرسالة بخطه وممهورة بتوقيعه وبخاتم جمعية الشبان المسلمين أبان كان رئيساً لها في حيفا ، وهي موجهة الى رئيس وأعضاء عصبة المحاربين بحيفا ، وتحمل الرقم ٧٤٩/١٢٩ ومؤرخة في ١٣ جمادى الثاني سنة ١٣٥٣ الموافق ١٩٣٤/٩/٢٠ ، بدعوته للمشاركة في اجتماع لبحث تعليم الأميين وهذا نصها :
حضرات الأفاضل رئيس وأعضاء كشاف عصبة المجاهدين بحيفا المحترمين :
تحية واحتراماً وبعد ، فنظراً لحاجتنا القصوى الى تعليم أبنائنا ، ولعدم وجود مدارس كافية تقوم بهذه المهمة ، رأى مجلس الادارة أن يشترك وبقيّة الجمعيات في الرأي والعمل على تسهيل طريق التعليم أمام أبنائنا المشردين في الأزقة والشوارع ، وإزالة العقبات التي تحول دون تهذيبهم وتثقيفهم . وعليه فالجلس يرجو من جمعيتكم المحترمة انتداب شخص أو شخصين لحضور الاجتماع المنوي عقده في نادي الجمعية الساعة السابعة والنصف من مساء الثلاثاء الواقع في ١٩٣٤/٩/٢٠ للمذاكرة في هذا .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

١١ - شؤون فلسطينية : ٨٤ - ٨٥

١٢ - مجلة الجيل : ١٤٢

١٣ - حدث متواتر في جيلة ومشهور *

١٤ - كانت هذه الحكومة المؤقتة تضم أيضاً ، على ما ذكره لي المعمرون في جيلة ، صقر أصلان للإدارة (قائمقام) ، ومحمد ديب غلاونجي (للقضاء المدني والجزائي) ، وأدهم علي أديب للدائرة العقارية (الطابو) ، وحسن الدور للشرطة والأمن ، وكلهم من مدينة جيلة وقضائها *

١٥ - شؤون فلسطينية : ٩٠ أعلام الاسلام للطنطاوي ورقة ٣٢١ *

١٦ - مجلة الجيل : ١٤٩

١٧ - هو محمد كامل بن أحمد بن عبد القادر القصاب من زعماء الحركة الاستقلالية إبان الاحتلال التركي والفرنسي ، ومن علماء العربية والقراءات * أنشأ بدمشق المدرسة الكاملية ، وهي من أوائل وأهم العوامل في بعث الروح القومية العربية بدمشق ، حكم عليه الفرنسيون بالإعدام بعد الاحتلال ، ففادر دمشق إلى الحجاز ، ثم استقر في حيفا وأسهم في فلسطين بنقسط كبير من الإصلاح الديني وبعث الشعور القومي ، ثم عاد إلى دمشق وتوفي فيها سنة ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م (الأعلام للزركلي : ٧ : ١٣) *

١٨ - كلا الكتيبتين مطبوع (الأعلام ٦ : ٢٦٨ ، شؤون فلسطينية ٩١) * وقد عثرنا على نسخة من كتيب الأستاذ صبحي خزيان منشوراً في المطبعة العباسية في حيفا سنة ١٣٤٣ هـ ١٩٢٠ م ولكننا لم نعر على كتيب الشيخين : القسم والقصاب *

١٩ - الثورة العربية الكبرى في فلسطين : ٢٢ شؤون فلسطينية : ٨٩

٢١ - المصدر نفسه : ٨٩

٢٢ - سورة الصف الآيتان : (١٠ و ١١) *

٢٣ - رواه البخاري ومسلم والترمذي والفساني (إبراهيم بن أدهم للدكتور عبد الحليم محمود : ٧٢) *

٢٤ - شؤون فلسطينية : ٨٨

٢٥ - حدث مشهور في جيلة يتناقله الأهليون : أعلام الاسلام للطنطاوي : ٣٠٩ ، مجل الجيل : ١٤٤ *

٢٦ - مجلة الجيل : ١٤٥

٢٧ - من جبال محافظة اللاذقية وهي منطقة إدارية تابعة لمدينة اللاذقية وقصبتها قرية (الحفة) *

٢٨ - هو من أتراب القسم ومن جيلة ، استطاع الفرنسيون أن يظفروا به ، فساقيه وأشاعوا أنه رهن السجن في اللاذقية ، بيد أنه اختفى منذ ذلك الوقت ولم يعرف مصيره ، ولكن ذويه وأهالي جيلة يؤكدون أن الفرنسيين اقتادوه إلى ضاحية من ضواحي جيلة الشمالية تسمى (مسكينا) ، وأطلقوا عليه النار ، ثم أحرقوا جثته ، وبعضهم يقول أنهم أحرقوه حياً *

٢٩ - كان هذا الشيخ يحمل لواء الثورة ، وهو لواء المتزهد إبراهيم بن أدهم ، وكان أخضر اللون مكتوباً عليه (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وبعض الآيات التي تحض على الجهاد * وكان يحمل في جيلة أثناء الاحتفالات بالأعياد والمواسم الدينية والقومية ويظاف به في المدينة - ويذكر مراد بن مصطفى أوضه باشي والمعروف بابن فرهم في نهائية مخطوطته لكتاب « سيرة السلطان إبراهيم ابن أدهم للدرويش حسن الرومي » والتي فرغ من نسخها سنة ١٠٩٧ هـ ١٦٨٥ م أن هذه الرواية كانت تحمل في مقدمة الفصائل التي كانت تخرج من جيلة ، زمن العثمانيين لمحاربة الأعداء تيمناً وتبركاً به (الورقة : ١٨٠) *

٣٠ - زامت ثورته هذه ثورة المجاهد عمر البيطار في (الحفة) وهو ابنها ، والثورة الكبرى التي اضرم نيرانها المجاهد الباسل الشيخ صالح العلي في قضاء طرطوس وامتد لها حتى شمل جميع جبال اللاذقية ، وثورة البطل إبراهيم هنانو *

٣١ - زامل القسم في هذه المدرسة الشيخ كامل القصاب ، والأستاذ رشيد بقدونس رفيقه في الدراسة بالأزهر ، وهو عضو في المجمع العلمي بدمشق ، وله مؤلفات قيمة (توفي بدمشق سنة ١٩٤٣) .

٣٢ - الثورة العربية الكبرى في فلسطين : ٢٠ ، المقاومة العربية في فلسطين : ١٠٢ ، شؤون فلسطينية ٨٦ و ٨٨ و ٩٦ حضارة الاسلام : ٧٢ - ٧٣ - ذكر كل من صبحي ياسين ونقل عنه ناجي علوش ان القسم انتسب الى جمعية الشبان المسلمين سنة ١٩٢٦ وهذا خطأ والصواب هو ما تبينناه .

٣٣ و ٣٤ - شؤون فلسطينية : ٨٩ - ومما هو جدير بالتنويه هنا أن حزب الاستقلال تبني شعار « البريطانيون هم رأس الداء وأصل البلاء » فكانوا منسجمين مع القسم بالفكرة لكنه لم يشارك القسم بالعمل والكفاح المسلح بل كل يعتمد على اصطناع الأساليب الشرعية التقليدية (شؤون فلسطينية ٨٥ و ٨٦ ، والجبل ١٥٣) . وكذلك مما هو قمين بالذكر أنه ثار جدل ، بعد استشهاد القسم ، حول علاقته بالمفتي الحاج امين الحسيني . فمن الباحثين من نفى مساهمة المفتي له وتأييده له ، بل أكد رفضه لمساعدته (راجع : الثورة العربية الكبرى في فلسطين : ١٠٢ ، الجبل : ١٥٢ ٠٠٠٠) ومنهم من زعم أن المفتي ساعد القسم في تعيينه بالوظائف التي تولاه ، وأنه أيد القسم بثورته وعاضده (مجلة فلسطين . الهيئة العربية العليا لفلسطين آذار ١٩٦١ ، شؤون فلسطينية : ٩٩ - ١٠١ - ٠٠٠٠)

٣٥ - يقول الشقيري (أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية : ١٤٣) ان استشهاد كان في ١٠ تشرين الثاني ، ١٩٣٥ ولكن المجمع عليه أن خروجه من حيفا كان في التاريخ الذي ذكرناه ، وأن استشهاد كان في التاسع عشر منه على الأغلب .

٣٦ - المقاومة العربية في فلسطين : ١٠٢

٣٧ - أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية : ١٤٨

٣٨ - عبر الشاعر الفلسطيني الشعبي عوض عن ذلك الالتواء والفرد الذي تعرض له الشعب الفلسطيني من الملوك والرؤساء العرب آنذاك في قصيدة رائعة صادقة كتبها على جدران زنزانته في نكا ليلة اعدامه عام ١٩٣٧ بقوله :

ظنيت الناموك
تمشي وراها رجال
تخسه الملوك ان كان
هيك الملوك انزال
والله تيجانهم ما يصلحوا
لنا نعال
احنا اللي نحمي الوطن
ونبوّس جراحو

٣٩ - مقتطفات من كتاب « كشاف الصحراء » : ١١ .

٤٠ - أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية : ١٤٨

٤١ - مقتطفات من كتاب « كشاف الصحراء » : ١١ .

٤٢ - أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية ١٤٤ - ١٤٨ وقد كان هو والأستاذ معين الماضي من المحامين العرب الوطنيين ، الذين تطوعوا للدفاع من قبض عليهم من عصابة القسم .

★ ★ ★

□ أهم المصادر :

- ١ - الدولة العربية المتحدة ج ٣ - أمين سعيد - مطبعة البابي الحلبي - مصر .
- ٢ - أدعون عاماً في الحياة العربية والدولية - أحمد الشقيري - دار النهار للنشر - بيروت ١٩٦٩ .
- ٣ - المقاومة العربية في فلسطين (١٩١٧ - ١٩٤٨) - ناجي علوش . مركز الأبحاث لمنظمة التحرير الفلسطينية بيروت ١٩٦٧ .
- ٤ - الثورة العربية الكبرى في فلسطين (١٩٣٦ - ١٩٣٩) - صبحي ياسين - مطبعة دار الهنا .
- ٥ - اعلام الاسلام - محمد سعيد طنطاوي . مخطوط
- ٦ - اعلام الاسلام - عبد الوهاب سكر - المكتبة العربية بحلب .
- ٧ - الاعلام - الزركلي ج ٦ و ج ٧
- ٨ - الاعلام الشرقية - صلاح الدين العباسي ج ٢
- ٩ - حول الحركة العربية الحديثة - صيدا - المطبعة المصرية ج ٣ محمد غزوة دروزة .
- ١٠ - تاريخ فلسطين الحديث ، عبد الوهاب الكيالي - المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٣
- ١١ - جهاد الفلسطينيين ضد الاستعمار والحركة اليهودية (١٩١٨ - ١٩٤٨) الهيئة العربية العليا للفلسطينيين .
- ١٢ - مجلة الجبل - العدد العاشر لشهر تموز ١٩٨١ مقال للمستشرق الأميركي المسلم عبدالله شليفر .
- ١٣ - مجلة حضارة الاسلام - العدد العاشر للسنة التاسعة لشهري شباط وآذار ١٩٦٩ - دمشق .
- ١٤ - شؤون فلسطينية - العدد ١٢٦ لشهر أيار ١٩٨٢ - مقال للاستاذ علي حسين خلف « تجربة عز الدين القسام : ١٩٢٢ - ١٩٣٥ » وهو موثق بمراجع كثيرة ، ومقابلات ومجالس شخصية ومحاورات مع بعض ذوي القسام ومعارفه .
- ١٥ - تطور الحركة العمالية الفلسطينية ج ١ - تموز ١٩٨٠ حركة التحرير الوطني الفلسطيني « فتح » .
- ١٦ - فلسطين - نشرة دورية تصدرها الهيئة العربية العليا فلسطين شهر آذار ١٩٦١ .
- ١٧ - مقتطفات من كتاب (كشاف الصحراء) عطف عبد العزيز نور الله - صورة فوتوغرافية عن مجلة (الشباب والرياضة) التي كانت تصدر في فلسطين وتحوي صوراً للقسام ولعائلته ، ولكتب ورسائل مدونة بخط يده أبان كان رئيساً لجمعية الشبان المسلمين في حيفا ، ولبطاقات دعوة عامة للمشاركة في حفلتي تأبين الشهيد وصحبه اللتين أقامتهما جمعية الشبان المسلمين ، وفرعا مؤتمرات الشباب العربي الفلسطيني في حيفا والطيرة مؤرخة في ٥ كانون الثاني ١٩٣٦ .
- ١٨ - ذكريات وروايات كنا نسمعها من أهلنا وأهل الشهيد في بلدنا جبلة وبحوث ومقابلات شخصية حديثة مع نجله وأقاربه والمعمرين فيها .